

أحاديث رمضان ١٤٢٢ - موضوعات قرآنية - الدرس (٢١ - ٥٧) : الشهوات .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠١-١١-٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

شَهَوَاتُ الْإِنْسَانِ : الْمَالُ وَالنِّسَاءُ

أيها الأخوة الكرام ؛ هذه أطول قصة في القرآن الكريم ، ومحورها الأساسي أن امرأة ذات منصب وجمال دعت هذا النبي الكريم الشاب الطاهر فقال :

(إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

[سورة المائدة الآية: ٢٨]

محور هذه القصة أن كل واحد منا أودع الله فيه شهوة ، هذه الشهوة لأنك خلقت من نفخة ، من روح الله ، ومن قبضة من طين الأرض ، فيك نوازع سفلية ، وفي نوازع علوية ، وهذان الاتجاهان واضحان في كل إنسان ، أحياناً يتمنى أن يكون طاهراً عفيفاً ، كريماً ، صادقاً ، وفيها ، هذه النوازع العلوية ، هذه من أثر نفخة روح الله ، والإنسان يحب أن يأكل وأن يشرب وأن يتزوج ، وهذه الدوافع أساسها أنه خلق من قبضة من طين الأرض ، لذلك لأن الإنسان مخير ، إذاً كل الشهوات التي أودعها الله فيه حيادية ، أودع فيه حب المرأة ، هذا من الحيادي ، ولأن الله عز وجل ما أودع في الإنسان شهوة إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، أي ليس في الإسلام حرمان ، ولكن فيه تنظيم ، مجتمع الكفر يأبى إلى التفلت ، والفوضى ، والإباحية ، هذه الشهوة إذا ضبطت كانت قوة لك دافعة إلى الله ، فإن لم تضبط كانت قوة مدمرة .

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال :

((اتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء))

[أخرجه مسلم والنسائي]

ويبدو أن هذا الميل متغلغل في أعماق أعماق النفس ، وأنه خطير ، فإن لم تجعل بينك وبينه هامش أمان فإنه مدمر .

أولاً : كأن الشهوة يمكن أن تتحرك فيها مائة وثمانين درجة ، ولكن الشرع سمح لك بثمانين درجة فقط ، ما هو الدين ؟ الدين عملية ضبط ، ما هو الفساد ؟ عملية تفلت ، كل إنسان أودع الله فيه حب المرأة ، وكل امرأة أودع الله فيها حب الرجل ، ولكن المؤمن والمؤمنة ينضبطان وفق منهج الله ، فتكون هذه الشهوة دافع لهما إلى الجنة ، ولولا هذه الشهوات لما كان هناك جنات ، كيف تتقرب إلى الله إن لم تضبط شهوتك ، إن لم تضبط مالك ، إن لم تضبط إنفاقك ، إن لم تضبط جوارحك ، الدين كله والإيمان كله عملية ضبط فقط .

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)

[سورة النازعات الآية: ٤٠-٤١]

فذلك أيها الأخوة ؛ لا يمكن أن يفصل الدين بشعائره عن علاقتك بالمرأة بطبيعتها ، إنسان دين ما في عنده انضباط مع النساء ، ولو بالنظر في عنده بدينه خلل ، لأن هذه الشهوة محددة بقناة واحدة ، أو في قنوات ، لكن كلها قنوات صحيحة ، أم إذا أطلقتها من عقالها كانت هذه الشهوة مدمرة ، لذلك أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء ، هذه الشهوة لها قوة وهج ، وقوة جذب ، الإنسان يتأثر بها عن بعد ولو بصورة ، ولو بالشاشة ، ولو بالقراءة ، فهناك تأثير ، فما لم يدع الإنسان بينه وبين هذه الشهوة هامش أمان فإن أثرها يصل إليك .

هكذا مرة سمعت أن بعض الغواصات تتحرك بالطاقة الذرية ، يضع فيها كمية بسيطة من اليورانيوم ، يعني خمس غرامات ، هذه الكمية يمكن أن تحركها سنتين ، غواصة عملاقة تتحرك بالطاقة الذرية ، فهذه الكمية المحدودة من اليورانيوم تحرك هذه الغواصة العملاقة ، وأنا أرى والله كأن هذه الشهوة الجنسية كهذا اليورانيوم في الإنسان يدفعه إلى العمل ، يدفعه إلى إتقان عمله ، إلى كسب ماله ، من أجل أن يتزوج ، من أجل أن يطعم أولاده ، فما هذه الشهوة التي أودعها الله فينا إلا باعثاً للعمل ، أما إذا كانت هي هدفاً بنفسها ولم تتقيد بمنهج الله أصبحت قوة مدمرة ، يعني كم إنسان يتاح له ما أتيج لهذا النبي الكريم فيقول :

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

[سورة يوسف الآية: ٢٣]

بالمناسبة إياكم ثم إياكم ثم إياكم أن تفهموا الآية كما يقول بعض الناس ، لأن سيده أنعم عليه وأحسن مثواه ما أراد أن يخونه ، طيب لو أن العكس كان ، لو كان سيده قاسياً وظالماً يخونه ، هذا المعنى فاسد .

(إِنَّهُ رَبِّي)

[سورة يوسف الآية: ٢٣]

ربي هو الله .

(أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

[سورة يوسف الآية: ٢٣]

في بعض التفاسير

(إِنَّهُ رَبِّي)

أي سيدي ، لو لم يكن محسناً أيعقل أن يخونه ، مستحيل ، فأنا أرى أن في الإنسان مأخذين ، مقتلين ، مهلكين مزلقين ، خطيرين ، إنه المال وإنها المرأة ، وتلك نقطتا ضعف في شخصية الإنسان ، وكل الذين سقطوا في تاريخ البشرية سقطوا من فضيحة مالية ، أو من فضيحة أخلاقية ، أبداً ، مرة في الأخبار سمعت الكيان الصهيوني يمكن المقام الأول رئاسة الجمهورية خيانة مالية ،

رئاسة الوزارة خيانة أخلاقية ، قبل سنتين تقريباً ، قصة مشهورة ، الإنسان متى يسقط ؟ إذا وقع في منزلق هاتين الشهوتين ، فذلك أعظم ما في هذا الشرع أن الله جعل بينك وبين المعصية الكبرى هامش أمان ، كأنك تمشي على شاطئ النهر ، نهر عميق ومخيف له شاطئ مائل زلق ، وله شاطئ مستوي جاف ، إن مشيت على الشاطئ الزلق احتمال السقوط كبير جداً ، وإن مشيت على الشاطئ الجاف احتمال النجاة كبير جداً لذلك قال تعالى :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

[سورة الإسراء الآية: ٣٢]

لم يقل ولا تزنوا ، ومن عجيب ما قرأت أن الإنسان إذا تجاوز الخط الأحمر في علاقته للمرأة ، يعني صار في خلوة ، أو صحب الأراذل ، أو استمع إلى شيء لا يرضي الله ، أو خالط العصاة ، أو جلس معهم ، يعني تجاوز الخط الأحمر ، قال الدماغ يفرز مادة إذا استثير الإنسان تعطل محاكمته ، لذلك تجد أشخاص كبراء في خلوة سقطوا ، والتي سقطوا معها أقل من زوجاتهم بكثير ، فالإنسان إذا تجاوز الخط الأحمر ، هذا الموضوع يمكن أن تعطل محاكمته وأن يقع بالفاحشة ، وأن يكون هالكة بسببها ، لذلك عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((إياك والخلوة بالنساء والذي نفسي بيده ما خلا رجل بامرأة إلا دخل الشيطان بينهما))

[أخرجه الطبراني]

ما قال ما خلا كافر بامرأة ، ما قال ما خلا فاسق بامرأة ، قال ما خلا رجل ، أنا أكاد أقول أنه ٩٩% من حالات الفاحشة سببها خلوة ، المؤمن لا يخلو بامرأة أبداً ، أغلق هذا المنفذ الخطر ، المؤمن لا يصحب الأراذل ، والله سمعت عن رجل كان يشرب الخمر ويعاقرها ، ذهب إلى بيت الله الحرام تاب توبة نصوحة ، عاد إلى بلده وله أصدقاء قدامى يحتسي معهم الخمر ، بقي على صلة معهم وفي يوم من الأيام دعوه إلى شرب الخمر فأبى ، فقال له واحد كم كلفت حجتك ؟ قال له: خمسين ألف ، قال له : هي خمسين ألف بس اشرب ، وشرب انتهى ، سمعت قصة ثانياً إنسان يقامر أصيب بمرض عضال وتاب توبة نصوحة ، لأنه صحب أصدقائه السابقين عاد إلى القمار .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: ١١٩]

يجب أن تحيط نفسك بيئة طيبة ، ببيئة مؤمنة ، بأناس أطهار ، بأناس صادقين ورعين مستقيمين ، أقول بصراحة أحد أكبر الأخطار التي تبعد الإنسان عن ربه قضية المرأة ، ليس هناك حرمان إطلاقاً ، ولكن هناك تنظيم ، الشيء الذي سمح الله لك به ، سمح الله لك به ، ما سواه ممنوع ، إذا أردت أن يسان دينك وأن تكون صلاتك بالله عز وجل اتصالك به متيناً فراعي هذه الناحية .

جارية في قصر ملك مصر ، رأت يوسف عبداً ثم رآته عزيز مصر فقالت : سبحان من جعل العبيد ملوكاً بطاعة ، وسبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصية ، العبيد أصبحوا ملوك ، يعني لو أن امرأة سألتني بما تتصحنى ، أقول لها : إن كنت زوجة ، برعاية زوجك وأولادك لأنها عبادتك

الأولى ، ولو غني سألني أقول له : بإنفاق مالك ، لأن الله أقامك غنياً ينبغي أن تعبدته فيما أقامك ، لو أن إنسان قوي يحتل منصب رفيع استنصحتني ، أنصحه أن ينصف مظلوماً ، وأن يحق الحق ، لو أن شاباً استنصحتني أنصح به بغض البصر ، لأن أكبر خطر ممكن أن يصرفه عن الدين موضوع إطلاق البصر ، وموضوع صحبة الأراذل ، وما يتبع ذلك من ملهيات ، أعوذ بالله ، أشياء تثير شهوة الإنسان ، من كل ما يسبب لك أن تدخل في حيز أنت بعيد عنه قبل الزواج ، وشيء آخر من فضل الله وكرمه أنه ما من إنسان يعف قبل الزواج إلا يهيئ الله له يعني شيئاً يسره ، والنبى قال : إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها ، وهذه الزوجة المؤمنة لا يستحقها إلا مؤمن ، الطيبون للطيبات والفاسقون للفاسقات .

الثقة بنصر الله

في آخر السورة وجدت أنني ينبغي أن أقف عندها قليلاً ، يقول الله عز وجل :
(حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا)

[سورة يوسف الآية: ١١٠]

يعني رسل ، أنبياء ، رسل وقد تأخر نصر الله عز وجل يبدو أن تأخير النصر لحكمة بالغة ، كلما تأخر النصر يسقط ضعاف الإيمان ، والذين لم يتوازن في بداية الأحداث الآن اختل توازنهم ، علقوا آمال وكأنهم فرضوا على الله أن ينصرهم ، فإذا الله لحكمة يريدنا يعلمها نحن لا نعلمها يختل توازنه فلذلك الإنسان يجب أن يبقى أمله كبير بالله .

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٣٩]

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَرُوا وَلَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

[سورة آل عمران الآية: ١٤٦]

في شيء آخر : كل معلوماتنا التي بين أيدينا ليست كافية أن نحكم ، لن هذا الأعلام يأتي من العدو ، يأتي من العدو بشكل مدروس ، بحيث يثبط عزائمنا ، ما نكون ضحية إعلام موجه ، إعلام ماهر ، إعلام خبيث ، نحن نقرأ هذه الآية :

(حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا)

[سورة يوسف الآية: ١١٠]

لأن الله عز وجل قال :

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

[سورة النصر الآية: ١]

ماذا تعني إذا ؟ إذا تعني تحقق الوقوع ، أما قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ)

[سورة الحجرات الآية: ٦]

ماذا تعني إن ؟ احتمال الوقوع ، يعني قد يأتي الفاسق وقد لا يأتي ، لكن نصر الله أتان لا محالة .

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

[سورة الإسراء الآية: ٨١]

في شيء آخر أنت عليك ألا تستبطئه ، عليك أن تنتظر ، وانتظار الفرج عبادة ، وبحكم لا نعمها قد تنكشف أمور ، وقد تتطور الأحداث ، وقد يظهر الإسلام دين عدل ، ودين رحمة ، ودين إنصاف ، وقد يكشف الكفر وما لم تكفر بالكفر فالطريق إلى الله غير سالك .

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٥٦]

إله الكون يقول :

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ بُونَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٢]

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال الآية: ٣٦]

لكن متى ؟ .

(لَا يُجَلِّئُهَا لُوقَتِهَا إِلَّا هُوَ)

[سورة الأعراف الآية: ١٨٧]

بطولة المؤمن أنه واثق من رحمة الله ، ومن حكمته ، ومن عدله ، ومن علمه ، مهما تأخر النصر ، لا تتهم الله في نفسك ، كماله مطلق ، وهذا الكون يدل عليه ، لكن لا تستطيع أن تعرفه من أفعاله إلا بشرط واحد أن يكون لك علم كعلمه وهذا مستحيل ، لكن تعرفه من كلامه . قال لك :

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

[سورة الكهف الآية: ٤٩]

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

[سورة العنكبوت الآية: ٤٠]

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء الآية: ٧٧]

(وَلَا يُظْلَمُونَ تَقِيرًا)

[سورة النساء الآية: ١٢٤]

(مِنْ قَطْمِيرٍ)

[سورة فاطر الآية: ١٣]

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

[سورة العنكبوت الآية: ٤٠]

(لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ)

[سورة غافر الآية: ١٧]

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

[سورة الزلزلة الآية: ٧-٨]

(وَلَيْنٌ مُتُّمٌ أَوْ قَتِيلٌ لِلَّهِ تُحْشَرُونَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٨]

أنت مؤمن بالجنة ، ما قيمة الدنيا ؟ ألم يمثل بعمه الحمزة ؟ ألم يقتل في أحد سبعين صحابياً من كبار الصحابة ؟ .

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٤٠]

يعني مرة ينتصر أهل الحق ، ومرة لا ينتصرون ، ولا تعلم أنت الحقيقة ، معلوماتنا كلها غير صحيحة وغير كافية كي نحكم ، دائماً تريت دائماً ، لا تتسرع ، آفة المسلمين التسرع ، والفوران العاطفي ، نحن بحاجة إلى توازن عقلي ، بحاجة إلى فكر موضوعي ، بحاجة إلى ، لأن أعدائنا أغنياء وأذكياء وأقوياء ويخططون ، وعلى النفس الطويل ، نحن نفور ثم ننطفئ ثم نصاب بالإحباط ، هذا كله ليس في صالحنا ، وطن نفسك أن تكون مع الكتاب والسنة ، وطن نفسك أن تفوض الله في أفعاله وحكمته ، فهذه الأفكار أردت أن أنقل إليكم حول قوله تعالى :

(حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ

الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

[سورة يوسف الآية: ١١٠]

والحمد لله رب العالمين